(٢)

التعاطف جهد مبذول . وقد ينظر المرء فى وقتين مختلفين إلى عمل فنى واحد ، فإذا هو اليوم غير ماكان بالأمس ، وإذا بهما عملان اثنان عملتهما قدرتان ، وتمثلت فيهما نفسان أو قريحتان . والمعول فى هذا ، أكثر الأحيان ، على أطوار النفوس وبدوات الأذواق أو سوانج الفكر . المعول على نمو حاسة التعاطف . العمل الفنى يحتاج إلى طور نفسى ملائم . والتقدير الصحيح لا يتهيأ لنا إلا مع المشابهة فى النظرة والمقاربة فى الإحساس ، فلا نقول ثمة إن الإعجاب متهم الاستحسان ، ممزوج بالغرض والمحاباة ، بل نقول إننا كنا أقرب الى الفهم والتقدير ، فرأينا من الأثر الفنى ما لسنا نراه فى غير تلك الحال .

ولكن كثيرا من القراء يظنون أن الحياد مفتاح صالح . والحياد كلمة موهمة تستعمل فى غير مجالها ، وقد يراد بالحياد أن تسمح بالابتعاد عن خواطر الفنان ، وأن تبقى على تباين الجو الذى صنع فيه العمل والجو الذى ينظر إليه فيه . وهذا أولى بأن يكون حجة على خطأ الحكم وصعوبة الإدراك ، وأننا كنا محرومين من ذلك التهيؤ الذى لا غنى عنه فى كل تقدير يتصل بالخيال والشعور . التهيؤ تخلية وتحلية بعبارة القدماء . وما يخطر للنفس وهى مشرفة على جانب السماحة والرضى غير ما يخطر لها وهى مشرفة على جانب التبرم والأسى .

وخليق بالقارىء اليقظ أن يذكر هذه الملاحظة . وكل باب من أبواب النفس يستثنى كل طارق عليه إلا ذلك الطارق الذى يليق به التقدم إلى ذلك الباب . فهناك على الطريق مرحب موكل باللقاء والتمييز يأذن للخواطر المدعوة ، ويصدف عن خواطر التطفل والفضول . وإنها لفاتحة تبتدىء ثم تطرق اللواحق على وتيرتها ، ثم ماهو إلا أن تجوز الطارقة الأولى ، وتأخذ مكانها حتى تفرغ النفس لضيوفها التى تفد عليها رتلا بعد رتل من حيث فتحت لهم هى باب القبول .

وخلاصة هذا أن القراءة عمل شاق يصطبغ لا محالة بصبغة القارىء من بعض النواحى ، ولكن هذا لا يعنى أن نترك لأنفسنا العنان لنعجب بشىء مما يروقها فحسب ؛ فالقراءة استخلاص لشىء من نفوس الناس يختلط بشىء من نفوسنا . وهذا